الفصحى لغة القرآن

لغة فكر عالمي لنمو سبعمائة مليـــون مسلـــم جغرافيا ويمتد اربعة عشر قرنا فى التاريخ والتراث

الأستاذ أنور الجندي (القاهـرة)

ان التاريخ ليذكر ذلك الجهاد المتصل الـــذي حمل لواءه رجال امثال : مصطفى صادق الرافعي ، ومحب الدين الخطيب ، واحمد زكي باشا الملقـــب بشيخ العروبة ، وعبد العزيز جاويش ، وعلي يوسف ، والدكتور محمد محمد حسين ، واحمد الحوفـــي ، وغيرهم فى سبيل مقاومة الهجوم على اللغة العربية وانتقاصها ، والحملة عليها طوال تاريخ طويل يمتد الآن اكثر من خمسين عاما من خلال حملات المستشرقين والمبشرين ، ومن خلال مقررات حملها وزراء فى عهد الحماية البريطانية ودعوات فى الصحف وبعض المجامع من اجل تجزئة مفهوم اللغة العربية الاصيل المتكامل ، ومحاولة لتصوير اللغة العربية على انها لغة « امة » ومن حق هذه الامة التصرف فيها .

تلك هي القضية : لقد حاول الاستعمار والتغريب ان يطرح شبهة جزئية وجرت الاقلام في سبيل دعمها واقناع الناس بها ، ان اللغة العربية لغة امة هي الامة العربية وان كل قطر من شأنه ان يكتب لغة ، وان هذا الامر يستدعي كل بلد ان يتناول هذه اللغة على النحو الذي يرضاه ويراه محققا هذه الغاية .

وكان هذا الاتجاه فى طرح القضية يحمل طابعا خطيرا من التمويه والتزييف والتجاوز .

ان طرح القضية على هذا النحو يمكن ان يكـون صحيحا فى اي بلد من بلاد العالم وفى مواجهة اي لغة ولكنه يصبح عسيرا جدا حين يطرح بالنسبة للغـــة العربية . ولو لم ترتبط اللغة العربية بالقرآن والاسلام لكان يمكن ان يكون هذا الكلام مقبولا .

اما وقد انزل القرآن منذ اربعة عشر قرنا باللغة العربية فانشأ عالم الاسلام الفكري والاجتماعي والديني فقد اصبح للغة العربية وضع مختلف لا شبيه له فى اي لغة اخرى . ولم يعد للعرب وحدهم حق التصرف فى اللغة العربية . ولم تعد اللغة العربية لغة اقليمية تخص قطرا ، بل لم تعد الامة العربية نفسها مطلقـــة الارادة فى التصرف بها .

هذه هي الحقيقة التي واجه بهـــا المفكـــرون المسلمون منذ اكثر من ثمانين عاما تلك المحاولة التي قام بها ولكوكس فى مصر وماسينون فى الشام وكولان فى المغرب ، ثم تابعهم بعد ذلك سلامه موسى والخوري مارون غصن وكثيرون .

ان اخطر ما تمثل اللغة العربية هو ان قارئها اليوم فى العقد الثامن من القرن العشرين يستطيع ان يقرأ ويفهم ما كتب بها منذ القرن الخامس الميلادي (اي ما كتب قبل نزول الاسلام بأكثر من نصف قرن) .

أي ان تراثا حافلا قام في خلال هذه الفترة كلها ـ واعظمه ما جاء بعد الاسلام بالطبع ـ هذا التراث هو ملك حر لقراء اللغة العربية يلمون به الماما صحيحا دون أن يكونوا في حاجة الى مراجع أو معاجم ويفهمونه فهما صحيحا . وهذا ما لم يتيسر بالقطع لاى لغة في العالم كله اليوم ، وذلك أن أي لغة قائمة الآن بخلاف اللغة العربية لا يستطيع قراؤها أن يفهموا من تراثها الا ما لا يجاوز الثلاثة قرون ، اما ما يبعد عن ذلك فانهم يلتمسون لفهمه المعاجم . ان مرد ذلك ثبات اللغة العربية الذي لم يتح لأي لغة أخرى ، ومرجع هذا الثبات الى نزول القرآن بها وارتباطها به على النحو الذي انشأ هذه الثروة الضخمة من العلم والتراث والتآليف .

ومن هنا أصبح للغة العربية خاصية متميزة لا تستطيع اللغات الاخرى ان تشاركها فيها ولا تستطيع هي ان تجاوزها : تلك هي انها لغة أمة ولغة فكر ودين. فهي لغة الامة العربية التي يبلغ تعدادها اكثر من مائة مليون يتكلمون بها وبها يتعاملون ، وهي في الوقت نفسه لغة المسلمين جميعا : لغة فكرهم ودينهم وصلاتهم ولغة ذلك الرباط الذي يجمعهم بالتشريع والعقيدة جميعا وهو القرآن الكريم .

ومن هنا كان الخطر الوحيد الذي يواجه اهل اللغة العربية هو أن يسقطوا عن مستاى أسلوب القرآن ، ليصبح أسلوبهم قاصرا عن فهمه وتعمقه ، لأن ذلك من شأنه ان يفصل بينهم وبينه ، وذلك ما تحاوله القوى الهدامة المعادية للعرب والاسلام ، والتي تدعوهم الى ما يسمى باللغات الوسطى او تقريب الفصحى من العامية .

وامامنا القرآن وهو المقياس الثابت وعلينا في كل حركة من حركات العمل ان نقترب منه ونلتقي به ، فعلى العامية أن تقترب من الفصحى وليس على الفصحى ان تنزل الى العامية .

والتعليم كفيل اذا اتسعت آفاقه ان يقلل من الحاجة الى العامية وان يقرب الاتصال بالفصحى .

والذوق العربي كله متصل بالفصاحة ، وفهم الفكر الاسلامي والثقافة العربية متصل بهذا المستوى من الاسلوب والبيان .

لقد كان لارتباط اللغة العربية بالقرآن الذي نزل بها آثاره البعيدة المدى ، فلقد اتصلت اللغة العربية التي كانت تعيش على حدود الجزيرة العربية الى آفاق العالم كله وحملت معها ثقافة القرآن ، وحصيلة العلوم، ونظريات السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وحملت معها المنهج العلمي التجريبي . فالقرآن هو الذي أعطاها هذه المكانة وفتح أمامها هذه الآفاق ، فهي بوصفها لغة الاسلام قد حملت رسالة ضخمة الى العالم كله والى البشرية : هي رسالة التوحيد .

ولقد وهب القرآن اللغة العربية حصيلة ضخمة من المعطيات الفكرية والاجتماعية من خلال رسالته العالمية التي اتخذت من الفاظ اللغة العربية المتناثرة تشكيلا جديدا طرح على البشرية منهجا شاملا من الحياة والفكر والنظر في الكون وبناء المجتمعات والأخلاق .

وكان هذا هو مصدر دهشة الناس عند نزول القرآن ، فقد كانت هذه الالفاظ معروفة لهم باعيانها ، ولكن الاعجاز كان متمثلا في هذا التشكل الذي تشكلت به فكرا واداءا ، في هذه القيم الجديدة التي قدمها ، وهذه الصور المتعددة ، وهذه الروعة في اسلوب الاقناع والحوار ، وهذه المناهج المتعددة في مخاطبة القلب والعقل .

ومعنى هذا أن ثروة اللغة العربية انما ترجع في تشكلها القرآني الذي أعطاها هذه القوة ، وفي نفس الوقت اعطاها الاسلام هذا الاتساع والذيوع .

ومن هنا قد أصبحت صلة اللغة العربية بالقرآن والاسلام صلة عضوية تمثل التجربة الاولى والاخيرة من نوعها في صلة رسالة السماء بلغة من اللغات ، ولا ريب أن هذا المفهوم له اثره البعيد في امتلاك المسلمين جميعا لهذه اللغة ، وما يتصل بهذا من خطأ القول بان لقطر ما او شعب ما ، القدرة على التصرف في اللغة العربية .

ومن الحق أن يقال ان اللغة العربية هي لغة فكر عالمي يضم سبعمائة مليونا من المسلمين جغرافيا ويمتد أربعة عشر قرنا في التاريخ والتراث .

(2)

هذه الحقائق كانت واضحة في اذهان اولئك المنافحين عن اللغة العربية في كل عصر : نراه واضحا في عبارات مصطفى صادق الرافعي قبل خمسين عاما حين يعرض للقول بأن العربية لغة أمة أم لغة فكر :

« ان في العربية سرا خالدا هو هذا الكتاب المبين (القرآن) الذي يجب ان يؤدى على وجهه العربي الصحيح ، ويحكم منطقا واعرابا بحيث يكون الاخلال بمخرج الحرف الواحد منه كالزيغ بالكلمة عن وجهها وبالجملة عن مؤادها وبحيث يستوي فيه اللحن الخفي واللحن الظاهر . ثم هذا المعنى الاسلامي (الدين) المبني على الفطرة **والمعقود على انقاض الامم،** والقيم على الفطره الانسانية حيث توزعت وأين استقرت ، فالامر اكبر من ان يؤثر فيه سورة حمق او تأخذ منه كلمة جهل » .

« انما القرآن جنسية لغوية تجمع اطراف النسبة الى العربية فلا يزال اهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة او حكما ، ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس وردهم اليها وأوجبها عليهم لما اضطرد التاريخ الاسلامي ولا تراخت به الأيام الى ما شاء الله ولما تماسكت اجزاء هذه الامة ولا استقلت بها الوحدة الاسلامية ثم تلاحمت اسباب كثيرة بالمسلمين ونضب بانيهم ولم يبق الا ان تستلحقهم الشعوب وتستلحمهم الامم على وجه من الجنسية الطبيعية لا السياسية فلا يتبين من آثارهم بعد ذلك الا ما يثبت عن طريق الماء اذا انساب الجدول في المحيط » (1) .

(3)

ويرد الكثيرون على شبهة المقارنة بين اللغة العربية واللغة اللاتينية : بقول الاب صالحاني :

ان اللاتينية ماتت كلغة للشعب بموت الدولة الرومانية وبقيت كلغة للكنيسة والعلماء . اما الشعب فكانت اللغات على لسانه تتكيف بتكيفات مختلفة حسب الأمكنة والأزمنة والعناصر ، ولم تكن اللاتينية لغته الاصلية وانما كانت اخرى : كالسليتة السكسونية والجرمانية الهندية ، وامتزجت بلغة اليونان فلم تثبت تلك اللهجات الا بتمادي الزمان وبتنوع الكتبة وفتح المدارس وتأليف الكتب ، وساعد الشعوب في ذلك انفرادهم في اصقاع متنائية ودول مستقلة، فاين كل ذلك من احوالنا وعلى كل حال فليس من شبه بين اللغات المشتقة من اللاتينية التي كما قلنا كانت لغة ميتة وبين اللغة العربية الفصيحة التي هي لغة حية منذ أربع عشر قرنا ، لم تحط اللغات العامية الكثيرة من قدرها مع شيوعها ، ولو امكنها ان تعزلها عن مرتبتها لفعلت ؛ لما كانت اللغات العامية سائدة بين الشعب لا تزاحمها المدارس والمطابع والادباء بتآليفهم ومنشوراتهم العمية والسيارة على اللغة الفصيحة (2)

(4)

وليس ادل على قوة اللغة العربية من عبارة ارنست رينان ، في كتابه تاريخ اللغات السامية :

« ان من اغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادىء ذي بدء ، فبدات فجاة في غاية الكمال ، سلسة اي سلاسة ، غنية اي غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها حتى يومنا هذا أي تعديل مهم . فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لاول امرها تامة مستحكمة ، ولم يمض على فتح الاندلس اكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة ان يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى .

من اغرب المدهشات ان تنبت تلك اللغة القومية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحاري عند امة من الرحل ، تلك اللغة التي فاقت اخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها .

وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ، ومن يوم علمت ظهرت لنا في حلل الكمال الى درجة انها لم تتغير اي تغيير يذكر ، حتى انه لم يعرف لها في كل اطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ، ولا نكاد نعلم من شانها ولا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تباري ولا نعلم شيئا عن هذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة » .

ومن عجب ان يكون هذا راي اهل العرب فيها ثم يقوم من ابنائها من ينتقص من قدرها ويدعو الى العاميات ويحاول ان ينتزعها من مكانتها العالية .

---

(1) البيان م 1913

(2) م المشرق ص 130 م 23 سنة 1965 .